العشق النجمى

للدكتور محمد عوض محمد

لئن كنت أيها القارىء ممن وقاهم الله غائلة العشق، ولم تنفجر فى صدورهم قنابل الغرام ، ولم تضع المقادير قلوبهم بين سندان الشقاء ومطرقة البلاء ، إذن فاحمد الله ، واشكر حدك الباسم!

لكن إذا كنت خليا فاذكر الشجي ، ولا تمنعك السعادة من أن ترثى للشقاء ، فان لصرعى الغرام عليك حقاً : أن تذرف من أجلهم لتراً أو لترين من الدمع الساخن ، ثم تسقى به ثراهم وتروى به الطلحة الحزينة التى تظلل جدثهم .

* * *

وإنى محدثك اليوم عن ضرب جديد من العشق ، أو على الأقل ضرب كنت أحسبه جديداً .. إلى أن ألفيته قديماً، شأن كل هذه الأشياء التى يطلع علينا بها المجددون . .

بيد أن العشق الجديد الذى نحن بصدده ، إن لم يكن جديداً ، فقد استحدثنا له اسما جديداً ، ودعوناه « العشق النجمى » .. وهو كما ترى اسم طريف ، ليس فى الكتاب من سبقنا اليه .. ولا خير فى كاتب لا ينهض للجليل من الأمور فيبتدع لها الجديد من الاسماء .

وأول من أصيب بالعشق النجمى فيما نعلم ، أو على الأقل أول من سجلت اصابته رسمياً ، هو العباس بن الأحنف إذ يقول عن حبيبته :

هى الشمس مسكنها فى السماء ... فعز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع اليها الصعود ... ولن تستطيع اليك النزولا

هكذا كان ذلك العاشق المسكين : يطلب ما ليس اليه سبيل ، ويظمأ والشراب عزيز ، ويشتهى وقصارى جهده أن يشتهى . ولعمرك ما دام مناط حبه الشمس ، فليس حظه منها سوى التطلع والتحديق ، والزفير والشهيق .. هل كان يعلم عفا الله عنه ! أن بينه وبين الشمس ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر٩٢ ميلا فى الصيف و٠٠٠ ر٠٠٠ ر٩٣ فى الشتاء ؟ وهى فى كلا الحالين بعيدة المنال ، ليس اليها فى شتاء ولا صيف وصول .

ومن العبث أن ننصح أمثاله من العشاق أو نعذلهم ، أو نطلب اليهم أن يصرفوا هواهم إلى الممكن المتيسر ، والقريب الدانى . وأن يراعوا صحتهم ، فان فى طلب المحال سقما وسهداً وإن التحديق فى الشمس يضنى القلب كما يضنى البصر .. ولكن هيهات ...

إن المحب عن العذال دائماً فى صمم .

***

وأحسب القارىء قد أخذ الآن يفهم ما أعنيه بالعشق النجمى . وأظنه يتوهم أن العشق النجمى هو عشق الشىء البعيد المنال . . لكن هذا ليس الذى أرمى اليه . إن العشق النجمى هو عشق النجوم نفسها . . أجل النجوم التى فى السماء على طريقة العباس بن الأحنف المذكور . وروبداً يظهر لك ما أضمره . شيئاً فشيئاً .

***

هنالك أمراض تصيب الناس من آن لآن . لكنها تصيبهم فرادى . أى تصيب هذا مرة ، وذاك مرة أخرى . ثم يأتى بعد ذلك زمان تصبح فيه تلك الأمراض وباء يجتاح العالم كله إقليما بعد إقليم ، وشعباً بعد شعب .

وهكذا « العشق النجمى » كان فيما مضى يصيب الناس فرادى ، فأمسى الآن وباء شائعاً فاشياً ، قد ملأ السهل والجبل وانتشر فى المشرق والمغرب . وسبب ذلك أن قد ظهرت فى العالم سماء جديدة : سماء غير السماء التى ألفنا .. وهذه السماء الجديدة تدعى « السنما » وقد امتلأت أرجاؤها بالنجوم .

والعشق الذى تتأجج ناره فى قلوب المغرمين ببعض هذه النجوم لا يختلف ، فى كثير ولا قليل ، عن ذلك الهوى المبرح الذى وصفه لنا العباس بن الأحنف . وقد يظن بعض البسطاء أن نجوم السنما أدنى الينا وأقرب منالا ، إذ نراها أمامنا ونشاهدها بأعيننا . وهذا لعمرك خطأ محض ! فانها قريبة على بعد ، بعيدة على قرب .

والشرق نحو الغرب أقرب شقة
من بعد تلك الخمسة الأمتار ...

***

والآن قد أدركت أيها القارىء ما « العشق النجمى » وأنه هو تلك اللوعة التى تحرق قلوب الناس فى مشارق الأرض ومغاربها من أجل بعض النجوم ، التى تدور فى أفلاك تدعى « الأفلام » فى سماء يسمونها « الشاشة » البيضاء

فالعشق النجمى إذن منسوب إلى نجوم السما ، وبالله لا تقل كواكب السما ! لأن الكواكب فى علم الهيئة قريبة المنال دانية المزار ومن علمائنا اليوم من يحلم بالوصول إلى بعض الكواكب كالمريخ — أما النجوم فبعيدة بعد الشىء المستحيل وكذلك العشق النجمى فان مرامه بعيد ، وأربه محال .

***

وأكبر مايمتاز به هذا العشق أنه عذرى . . فانك قد تولع بنجمة فتانة من نجوم هليوود ، فيمتلىء بحبها قلبك ، وتملك عليك مشاعرك ، فلا ترى فى الأرض الفسيحة غير وجهها ، ولا تسمع غير صوتها . هى حلمك إذا هجعت ، ونجواك إذا صحوت إن أبصرتها فى قصة حزينة استولى عليك الحزن والألم . وإن أصابها برد أو زكام أصابك مثلها سعال وزكام . وإن رأيتها ويا للهول! — صريعة قتيلة ، قطع الحزن نياط قلبك ، وأظلم العالم فى وجهك ، فلا تزال كئيباً أسيفاً ، جاحظ العين متقلص الشفتين ، حتى تراها فى فلم آخر فرحة ضاحكة . فيسرى عنك وتبرق أسارير محياك . وتضحك حتى تبدو نواجذك . .

ومن الغريب أنك لا تأخذك الغيرة حين ترى عشاقها الكثيرين ، ولا تستنكر منها أن تبدل فى كل (فلم) زوجا مكان زوج او صاحباً مكان آخر . لا يهمك من هذا كله شىء لأنك لا تفكر فى غير سعادتها ، فكل ما ترضاه ترضاه . ويحلو فى عينك ما يحلو فى عينها . بل لقد ألهاك التفكير فيها عن التفكير فى شىء آخر . .

ثم أنت بعد هذا كله لا ترجو نوالا ولا وصالا ، تعلم أنها بعيدة عنك بعد النجم . وإن قربها منك الفلم . — وقد رضت النفس على هذا البعد الممزوج بالقرب ، وهذا النوال المنطوى على الحرمان . وهذا الوصل الذى هو أدنى إلى القلى والهجران . فلا تريد على حبك جزاء ولا لدائك دواء . ذلك أن هواك عذرى أفلاطونى برىء . فلا تريد لنارك المتأججة أن تطفأ ، ولا لغليلك المستعر أن يشفى . حب هو الغاية والوسيلة ، نار تأبى إلا اضطراماً ، ودمع يأبى الا انسجاما . وتنور يريد أن يفور ، وكان يحلو له أن يثور . من غير مأرب تنشده ، أو أمل تريد تحقيقه ، أو غاية تبغى الوصول اليها . . بل إن الحب هو الشغل الشاغل عن كل أمل أو مأرب أو مرام . .

***

تلك إذن هى الظاهرة الأولى للعشق النجمى : أنه هوى عذرى طاهر عفيف نظيف . أما الظاهرة الثانية لذلك العشق . فهى إنه يصيبك من بعيد . . وقديماً وصف لنا الشريف الرضى هذه الظاهرة فقال يخاطب نجمته ! :

سهم أصاب ورامیه بذی سلم
من بالعراق ... لقد ابعدت مرماك !..

ذو سلم هذا مكان فى جوار المدينة المنورة ، يكثر الشعراء من ذكره حين ينسبون . ولو كان لديك أيها القارىء مصور جغرافى لأمكنك أن تقيس المسافة بين العراق وذى سلم ، ولعلمت أنها لا تتجاوز سبعمائة من الأميال . ومع ذلك يذهش الشريف الرضى لأن سهم الحب قد أصابه من ذى سلم والشاعر فى العراق لكن تلك المسافة لاتعد شيئاً إذا قورنت إلى البعد الهائل الذى يفصل ما بين هليوود وبين وادى النيل السعيد . . وأن النجمة الفاتنة لترمى بسهمها من تلك الأقطار القاصية ، فلا يلبث أن يصيب صميم الفؤاد ، ويفتت الأكباد ، فى شرق العالم وغربه . لاتحول دونه بحار ولا قفار . . .

وفى الحب العادى قد يكون البعد من أسباب السلو ، والبعيد عن العين بعيد عن القلب فى زعم الناس . لكن البعد بين المحب والمحبوبة شرط أساسى فى هذا الصنف من الغرام . بل إنى زعيم بأن عاشق النجمة لو رآها على قارعة الطريق ، وهى تبتاع شيئاً من الحلوى ، أو داخلة إلى دكان الحلاق . لرأى شيئاً كسائر الأشياء وامرأة كسائر النساء ، ولما حدثته نفسه بأن قد يصيبه من مثل هذه قنبلة غرام . . بل ولا سهم ضئيل . .

كلا . . إنما يلعب حب النجوم بالارواح عن بعد . ومن مستلزماته تلك الحجرات المظلمة القاتمة ، تبعث فى النفس رهبة ، وتثير فيها شغفاً ورغبة . وهذه الأنوار الساحرة تنبعث من مكان خفى ، وتسطع على لوح فضى : ظلام يتوسط ، النور ، ونور